الفصل الخامس

رحلة في الزمن

طريقة الاختبار الذاتي

يقولون وبخاصة في وقتنا هذا إن الرياضيات يجب استخدامها أينما كان حتى في التاريخ، ولكن الحساب البسيط لا يقدم شيئاً لأهدافنا على أيّ حال، وذلك لأننا لا نحسب شيئاً ولا حاجة لنا للحساب به. ولنجرب استخدام طريقة رياضية أخرى - ولتكن حتى أكثر أولية مثلاً: تخيل بنفسك أن هدف تنقيباتنا - هو مكان خازاريا في الزمان والمكان - النقطة التي يجب تحميلها على المخطط - نقطة هي مكان تقاطع خطين أو تلاقي أربع زوايا. تبدو بالرسوم هكذا.

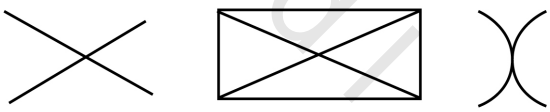

فنحن بحاجة بالحد الأدنى لزاويتي نظر (وجهتين) لكي ننشئ تناسبين مختلفين يتقاطعان ويقدمان لنا حلاً تقريبياً مبدئياً خاضعاً للاختبار بالمعاينة. وهكذا فنحن قد تتبعنا سابقاً الارتباط المتبادل بين الظواهر الطبيعية والاقتصاد لمنطقة شمال القزوين. ولنأخذ الآن سياسة التجارة العالمية لتلك المرحلة نفسها ونرى كيف تشكلت العلاقات الدولية نتيجة لتحرك طمع التجار والإقطاع. ففي كلتا الحالتين إذا لم نرتكب أخطاء كبيرة نجد أن كلاً من خطي التناسبين يجب أن يتطابقا ونصل بالتالي إلى معرفة تشكل وتطور وزوال الشعب الخزري.

جمع المؤرخون كمية لا يحدها البصر من المواد ولكن الأحداث هي التي تعتبر دوماً مادة الانطلاق بارتباط داخلي موحد بالزمان والمكان وإن جمع الحقائق - هو المهمة الأولى للمؤرخ واختبارها هو المهمة الثانية ثم عندما يقرر

أن الأحداث جرت على ذلك النحو بالضبط تبرز الأسئلة «لماذا» و «بماذا» التحليل والتركيب. وفقط بعدما يقدم المؤرخ الحلول لجميع هذه المسائل يمكن أن يعتبر البحث منتهياً.

لأجل أهدافنا لا بد من الدراسة التزامنية للتاريخ والبلاد التي تهمنا - خازاريا - التي تقع في قلب العالم المتحضر بالذات في ذلك الزمان، ونعيد إلى الذاكرة أن أولى المعلومات عن الخزر تعود إلى القرن الثاني للميلاد وعلى الأرجح أن خطأ مؤرخي القرنين الخامس والسادس الميلاديين هو الذي حمل إلينا التسمية المعروفة للقبائل القديمة التي عاشت في تلك المنطقة. ولكن بالنسبة لشعب كبير حتى يتكون ويتخذ شكله النهائي يحتاج إلى ثلاث مئة عام. ولذلك نحاول البحث في العهد الذي مر فيه الشعب الخزري في مرحلة الحضانة.

صورة تاريخية شاملة

في القرنين الثاني والثالث الميلاديين اعتبرت روما والصين إمبراطوريتين عالميتين عند الأطراف الغربية والشرقية للقارة. تقاسمتا سهوب الهونّو الجافة والسلاسل الجبلية - ملجأ القبائل المحاربة - والبارثيون المحاربون الذين لا يقلون عنهم ولم يكن بعد روماني واحد في الصين وعلى السواء لم يكن صيني واحد قد شاهد روما بالرغم من أنهما سمعا عن بعضهما بعضاً. وعلى ما يبدو أن تاريخ هذه البلدان يجب أن يكون قد جرى مستقلاً ولكن كان هناك شيء واحد ربط مصيرهما - الحرير. وكانت الحاجة إلى الحرير في ذلك الزمان ماسة أكثر من الآن لأن اللباس الحريري لم يكن فقط بضاعة كمالية وإنما واسطة تطهير قوية. واشترت ربات البيوت الرومانيات الأقمشة التي صنعها الفلاحون الصينيون لقاء الذهب المحصول عليه من نهب الأقاليم الذي لا هوادة فيه. وتحركت الجمال المحملة بالذهب على طرق القوافل المعبدة عبر إيران وآسيا الوسطى إلى الأبراج الحجرية (تاش كورغان) حيث يتم تبادل البضائع مع التجار القادمين بحمولات الحرير عبر صحراء الآشان من لو - يآن. وبغض النظر كيف وصلت البضائع الرومانية إلى الصين كان الرومان يفقدون سنوياً ٢٠ مليوناً من السسترسات[١]. ويتحول الذهب الأوروبي إلى أكياس المأمورين والمساعدين الصينيين ولكن بالطبع ليس إلى الفلاحين الذين يصنعون الغزولات الثمينة.

١- السسترس (sestertius): عملة رومانية قديمة استعملت ما بين ٢٦٩ق.م وحتى أواخر القرن الأول قبل الميلاد. كانت تصاغ من الفضة ثم صيغت من المعادن الملونة وهي تعادل ٤ آس والآس يساوي ٣٢٧.٥غ.

إن التجارة الخارجية بالبضائع الكمالية لم تستطع أن تؤثر مباشرة في تطور قوى الإنتاج لكلتا الإمبراطوريتين ولكنها أُجمِلَت مع العمليات الجارية في أعماقها وخلقت الصدامات التي أثرت على مصير روما والصين وكذلك على البلدان المجاورة لهما والتي ليس لها مشاركة مباشرة في التجارة.

تكوّن الجيش الروماني من الجنود الغالية الأجور الذين حدد عددهم الإمكانات المالية للحكومات، وجر انحسار الذهب من الأقاليم والبلدان بالطبع وراءه الصعوبات المادية والمخرج الأبسط منها هو عدم دفع الرواتب في وقتها المحدد ولكن العسكر لم يرغبوا الانتظار واستطاعوا أن يضعوا حداً لذلك - فقد أصبح القرن الثالث عصر التمردات العسكرية التي كان قادة المئات (السنتوريونات)[1] أثناءها من عداد الضحايا الذين كان من واجبهم الحفاظ على الانضباط في الجيش والذين كان لهم مع الجنود دوماً حسابات شخصية كان من الملائم تصفيتها في وقت التمرد. وفي النتيجة تفسخ الجيش الروماني قبيل نهاية القرن الثالث وفقد القسم الكبير من قدرته القتالية السابقة. القوات التي تحطمت في عهد تراجان ضد الداكيين وفي عهد ماركوس أوريلوس ضد قبائل الماركومانى والكوادميين (من ١٦٠-١٨٠م) وبعد ٦٠ عاماً فروا بصورة مشينة من أمام الغوث (مصرع الإمبراطور داكيوس في عام ٢٥١م) واستسلموا للفرس (أسر الإمبراطور فاليريان في عام ٢٦٠م[2] ومنذ ذلك الوقت انتقلت روما للدفاع، وإن نجاحات الأباطرة في النصف الثاني من القرنين ٣-٤م اقتصرت على قمع الانتفاضات علاوة على صد غزوات الجيران، وبالطبع كان لسقوط قوة الإمبراطورية الرومانية الكثير من الأسباب الأكثر أهمية إضافة إلى انتقال النقد ولكن يجب أخذ هذا بالحسبان وبخاصة أن الصين قد عانت ليس أقل من روما بسبب تجارتها الرابحة.

وبغض النظر عن أن أباطرة أسرة هان الملكية الفتية حاولوا لدرجة ما تنشيط تطور اقتصاد الفلاحين الصغار فإنهم لم يستطيعوا ضبط العملية الطبيعية لتوطيد الأطيان ونمو ثروات التجار والمرابين والبيروقراطيين. وعمل تدفق الذهب الروماني في هذه العملية دور المحفز وامتلك رؤوس «البيوت القوية» الوجهاء - المحاسيب والقادة والبيروقراطيون والخصيان الأراضي

٢- سنتوريون = قائد مئة، حسب تقسيمات الجيش الروماني أي ما يعادل سرية - المترجم.

١- أورد المؤلف تواريخ حكم وحوادث الأباطرة الرومان وقد وجدناها غير دقيقة ولذلك رأيت عرضها بدقة استناداً إلى سلسلة أباطرة الرومان منذ عام ٢٩ق.م إلى ٤٩٣م: حكم تراجان من عام ٩٨-١١٧م وماركوس أوريليوس من ١٦١-١٧٩م وداكيوس من ٢٤٩-٢٥٠م وفاليريان من ٢٥٤-٢٥٩م. أما هـ. ل. فيشر فيؤكد الصراع مع قبائل الماركومانى حيث يقول: «قبائل الماركومانى استنزفت جهداً عظيماً حتى تم إخضاعها في القرن الثالث الميلادي» انظر كتاب تاريخ أوروبا في العصور القديمة الصفحة ١٣١ - المترجم.

الهائلة التي بسبب الواردات المستلمة منها أصبح سهلاً التعامل بالذهب الذي لم يدخلوه في التداول وإنما ادخروه ككنوز وصنعوا منه الحلي أحياناً وعلى الأرجح أنه كان بالنسبة لهم الطريقة الأكثر ضماناً لحفظ الثروة لأن دسائس البلاط المستمرة والعقوبات المرتبطة بها ترافقها المصادرات أما السبائك المخفية في المطامير فتبقى ميراثا لعائلات المعاقبين. وأدى الفلاحون الحساب عن الجميع ولكن لما كان ذلك لا يحتمل أثاروا انتفاضة لإسقاط «السماء الزرقاء» سماء الظلم والقهر للوصول إلى «السماء الصفراء» سماء العدل ومن عام ١٨٤م ثارت قوات الفلاحين في أنحاء الصين الشمالية التي تفتتت بعد اندحارها إلى عدد من مفارز الأنصار التي انتصرت في عام ٢٠٥م وتشكلت أثناء زمن الحرب مفارز الارستقراطيين التي دخلت في الحرب مع القوات الحكومية، وفيما بينها وتفتتت الصين إلى ثلاث دول ولما اتحدت من جديد في عام ٢٨٠م ظهر أن سكان الصين نقصوا من ٥٠ مليون نسمة إلى ٧.٥ مليون نسمة وكان القرن الثالث للصين كما لروما جزاءً لازدهار القرن الثاني.

ولم تستطع القوافل المحملة بالحرير المرور بإيران وبالتالي لم تدفع الرسوم للملك البارثي فالبارثيون كانوا شعباً شجاعاً ولكنه قليل العدد، وعلى عرش الملوك البارثيين ارتفعت موجة مضادة للميول المقدونية ولكن بالنسبة للسكان الفرس ظل البارثيون غرباء وكانت الخيالة الثقيلة السند الأساسي لعرش الارشاقيين - فصائل الارستقراطيين الذين بلغ عددهم ٢٤٠ أسرة وطالما كان السلوقيون الضعفاء منافسين للبارثيين كان هذا الجيش كافياً تماماً للوصول إلى التوازن السياسي، ولكن لما ظهر الرومان على ضفاف الفرات أصبح الوضع عسيراً على البارثيين ونجح كراسوس في تحطيمهم ولكن أنطوني وتراجان نقلا الأعمال الحربية إلى ضفاف نهري أراكس ودجلة واحتاج الملوك البارثيون للفرسان الرماة /النبالة/ وكان ضرورياً استئجارهم بالمال. وها هنا أنقذتهم الرسوم من التجار حاملي الحرير إلى أوروبا. وهؤلاء التجار دفعوها دون مساومة. ولأنهم احتكاريون رفعوا أسعار البضائع[١] دون أي مانع ومن ثم يتضح أن انتفاضة «الربطات الصفراء» والحرب الأهلية التي تلتها في الصين أنزلت بميزانية التاج البارثي خسارة لا تعوض.

وتوقفت الأموال عن التدفق إلى الخزينة البارثية. وبعد أن وحد الأمير الفارسي أزدشير باباغان (الأول) طبقة النبلاء الصغار في فارس (جنوب غرب إيران) ورسم على الراية شعار إعادة إنشاء إيران القديمة والديانة الزرادشتية[٢]. حقق النصر بسهولة على البارثيين (٢٢٤-٢٢٦) [في ٢٨ نيسان عام ٢٢٦م -

---

١- القسم الأكبر من العملة أصبح في أيدي السماسرة البارثيين والهنود.

٢- كان الاكليروس (الكهنة) الزرادشتي مالكاً لكنوز هائلة ومدعوماً من الساسانيين الأوائل مما سمح له بالبقاء طويلاً غير متعلق بالتجارة .

المترجم] ولذلك سيطر من دون وسائط كبيرة على البلاد المغلوبة التي لا يمكنها العيش من دون الاقتصاد السلعي والتجارة.

وبالرغم من أن الهونّو قليلاً ما اهتموا بالحرير فإن الظاهرة الموصوفة لامستهم أيضاً، والصينيون المتطلعون إلى الغرب احتلوا واحات حوض تاريم (٨٦-٩٤م) وحرموا الهونّو الشماليين من تلك المناطق التي حصلوا منها على القمح وبالنتيجة ضعف الهونّو وطردوا من منغوليا قسم منهم إلى ضفاف الفولغا وقسم إلى سيميريتش (منطقة الأنهار السبعة) ومقابل ذلك ثار الهونّو الجنوبيون الخاضعون للصين (٣٠٤م) مستفيدين من حالة بؤس الإمبراطورية بعد الحرب الأهلية في القرن الثالث واحتلوا كل وادي هوآنهي مما سبب هجرة الصينيين إلى الجنوب من يان - تسي - زيان واندماجهم مع قبائل مان المحلية من سكان الحراج وهذا يعني تشكيل الشعب الصيني الجنوبي.

وهكذا حتى في أحداث الزمن القديم جداً التي جرت عند طرف المسكونة تداعى لها الطرف الآخر حيث لم تخطر حتى أسباب تلك الأحداث على البال.

وبعد انحلال دولة الهونّو في عام ٩٣م استمر قسم منهم بالحرب ضد الصين وسيان - بي حتى عام ١٥٥م. وبعد ذلك انسحب الهونّو المغلوبون إلى الغرب وشقوا طريقهم إلى مناطق البحر الأسود ولكن لم يبقوا هناك بل استوطنوا بين نهري الفولغا والأورال عندئذٍ سموا يائيك ومن هناك حتى سنة ٣٧٠م خاضوا مع الآلانيين مئتي عام من الحرب المنفذة بمجموعات صغيرة من الهونّو في وسط من الأوغور وسبب التهجين والانقطاع عن المراكز الحضارية تقهقراً وتبسيطاً في المعيشة. وتغير الشعب لدرجة أنه من الأفضل تسميته بالهوني الأبيض تفادياً للاختلاط. وعاش الهونيون على الصيد ونهب الجيران ولم يبنوا أبنية واستخدموا العظم رؤوساً للسهام. ولم يعرفوا الحكم الوراثي ولم يكن لهم تنظيم حكومي ولم يتركوا آثاراً لحضارتهم المادية لأنهم حصلوا على كل ما هو ضروري بشكل غنائم حربية أو إتاوات، وفقط القدور المشابهة للقدور الصينية القديمة لا شك تعود إلى الهونيين أما بقية المصنوعات الأخرى فقد صنعها لهم الحرفيون المحليون إلا أن العمل العسكري - تكتيك (نهج) إنهاك العدو - بقي على المستوى السابق.

وقبيل عام ٣٧٠م انتصر الهون بفضل ذلك على الآلانيين بإنهاكهم «بالاشتباكات المتكررة» وفي عام ٣٧١م وصلوا إلى نهر الدون وحطموا الغوث وخضع الغوث الشرقيون للهون البيض أما الغوث الغربيون فانسحبوا إلى فراكيا في عام ٣٧٦م وقبيل عام ٣٧٧م اقتحم الهون البيض بانونيا واشتبكوا مع الإمبراطورية الرومانية وحتى هذا التاريخ كانوا قد استعادوا معهم تربية الماشية الطليقة.

وترافقت الطرق البدائية لإدارة الاقتصاد عند الهون مع المستوى العالي للعمل العسكري وبقي الهون خاضعين لقادتهم المكتفين بجمع الإتاوات

واحتياجات القوات لحملاتهم الاغتصابية ومنذ عام ٣٧٧م إلى ٤٥٠م برز الهون حلفاء لروما ضد الجرمان والحركات الشعبية وتحددت سياسة الهون في أوروبا في هذه المرحلة بمساندة إقطاعيي الإمبراطورية الغربية الكبار مالكي العبيد والحرب ضد بيزنطة وفي الأعوام ٣٩٥-٣٩٧م اجتاح الهون المقتحمون عبر القفقاس سوريا وكبادوكيا وما بين النهرين، أما في عام ٤٠٨م فقد اعتدوا على فراكيا وفي عام ٤١٥م على إيلليريا وتكررت الإغارات على بيزنطة في الأعوام ٤٤١-٤٤٧م وفي عام ٤٤٥م جمع القائد الهوني أتيلا السلطة في يديه ولكنه قوبل بالاحتجاج في المناطق الشرقية حيث يوجد الاكاتسير (يعتبرهم م. إ. ارتامونوف جزءاً من الهون) الذين أبدوا له المقاومة حتى عام ٤٤٨م. وبعد أن ضبط أمره الشرقي وعقد صلحاً ناجحاً مع بيزنطة هجم اتيلا بكل القبائل الخاضعة له على الإمبراطورية الرومانية الغربية، وتكبد الهون في عام ٤٥١ الهزيمة على أرض كاتالونيا إلا أنهم اقتحموا في عام ٤٥٢م إيطاليا وسحقوا اكويلوس (القائد الروماني - المترجم) وأجبرت المقاومة العنيفة للسكان وظهور الوباء في القوات الهونية أتيلا على قبول السلم والإتاوة اللتين عرضتا عليه من قبل البابا ليون الأول، وفي عام ٤٥٣م مات أتيلا فجأة وعملت الخصومات التي نشأت بين أولاده على التركة إشارة إلى الجيبيديين والقبائل الجرمانية الأخرى إلى الانتفاضة وعند نهر نيداو (في بانونيا) انكسر الهونيون وانسحبوا إلى مناطق البحر الأسود التي كانت قبل هؤلاء بلداناً زراعية ثم تحولت إلى مراع. وحاول الهون الاستقرار هناك ولكن نحو عام ٤٦٣م جاءت من الشرق قبائل سارغوروف وأورغوروف وأونوغوروف الأوغورية المطرودة من أماكنها من قبل السابير من سيبيريا الغربية وخضعوا للأكاتسيريين ونحّوا الهون مجبريهم من جديد على التحرك باتجاه الغرب وفي عام ٤٦٩م برز الهون في فراكيا ولكنهم حُطموا وطُردوا من قبل البيزنطيين ومنذ ذلك الوقت اختفى الهون كشعب بالرغم من أن اسمهم استخدم لتسمية كثير من القبائل الرحل، وأصبحت بقايا الهون المبعدين من البلغار إلى الشمال أجداداً للتشوفاشيين.

وكان دور الهون في سقوط الإمبراطورية الرومانية عظيماً، إذ بتدميرهم للقرى الحضرية في مناطق البحر الأسود قد حرموا بيزنطة مع قمح السكيثيين، وأهلكت العمليات الداخلية والجرمان الإمبراطورية الرومانية الغربية، فالقسم الكبير من هؤلاء تحرك إلى الغرب إلى جانب الهون كالفرنجة والبورغنديين والفاندال (الوندال) والإنكليز، ونسب الغوث ببساطة تلك الذنوب التي رقدت في ضمير أحفادهم بحق الحضارة إلى الهون.

إن مئة عام (من أواسط القرن الرابع إلى عام ٤٦٣م) مرت على وجود الهون في سهوب القزوين لا يمكن أن لا يبقى لها أثر. فخلال هذا الوقت جرى تهجين الهون مع السكان السرماثيين - الآلانيين المحليين وكذلك تبادل خبرات

إدارة الاقتصاد والأفكار والتصورات عن العالم وفي النهاية الاقتباسات اللغوية وبالاختصار كل الظروف لتشكيل تكوين اثني (سلالي) جديد كانت موجودة والقسم الأساسي من أحفاد المحاربين الهونيين والنساء السرماثيات لا شك أنه اكتسب الرزق من زراعة البساتين والتحضر وتربية الماشية بالمراعي. لأن فوائد هذا النوع من الاقتصاد أوحت بها الطبيعة ذاتها - صفحة أرض وديان نهري التيريك والفولغا، زد على ذلك، ظهر أن السهوب كانت محتلة من قبل الأعداء الظافرين - القبائل البلغارية القديمة، ولذلك بقي أحفاد الهون - السرماث في الحصون الطبيعية: أجمات القصب وانتظروا ساعتهم، وهجموا في عام ٥٥٨م لما ظهر في السهوب المجاورة لقزوين شعب جديد - الترك القدامى أو كما يحلو لهم أن نسميهم الآن بالأتراك والجميع تغيروا جذرياً.

ولكي تُفهَم التغيرات التي حصلت في الموقف الاثني - السياسي نعود من جديد إلى الصورة الشاملة للتاريخ العالمي، في ذلك الوقت عندما كان الهونيون البلغار الأوائل والسابيريون يقومون بأعمال النهب والغزو عند الأطراف الشمالية لبحر قزوين تقوت إلى الجنوب منه وازدهرت في فارس السلالة الملكية الساسانية الشموخة وأوقف شاهات إيران في القرن الثالث عدوان الرومان من الشرق، وأخضعوا لهم محاربي الساك السيستان والبلوشستان وعقدوا اتحاداً دفاعياً - هجومياً مع إمبراطورية غوبتا الهندية ضد الشعب الإفتالي - الجبليين الذين بسطوا سيادتهم في القرن الخامس على آسيا الوسطى وشمال غرب الهند، وصار حلفاء الإفتاليين الإمبراطورية البيزنطية والخاقانية الجوجانية التي نشأت في القرن الرابع في سهوب منغوليا التي هجرها الهون الهونّو.

وبقي هذا الصدام حتى منتصف القرن ٦م. وفي عام ٥٤٦م أعلن عن وجوده حديثاً الشعب غير المعروف حتى الآن - الأتراك الساكنين في جبال ألطاي وخانغاي (خان - غاي) وفي عام ٥٢٢م سحق الأتراك الجوجان وفي الأعوام ٥٦٧-٥٧١م أخضع الأتراك شمالي القفقاس وصاروا على تماس مباشر مع بيزنطة وإيران.

☆☆☆

وقبيل نهاية القرن السادس تأزمت العلاقات العالمية بغض النظر عن أن الاتصال المباشر بين الشرق والغرب ظل كما هو عليه في الوضع السابق.

وخلع الصينيون في منتصف القرن السادس نير سلالة توبا - فائي الملكية الأجنبية وتشكلت في شمال الصين مملكتان متنافستان بائي - تشجوي وبائي - تسى تشملان السهوب من البحر الأصفر إلى البحر الأسود واستولت على قطاع من طريق القوافل من الصين حتى إيران بما فيه المدن الصغدية - التي هي نقاط استناد تجارة القوافل وفي الوقت نفسه ما إن استولت روما على قرطاجة حتى تعرضت إيطاليا وقسم من إسبانيا لهجوم اللومبارديين على

إيطاليا والآفار على الدانوب (نهر الدانوب) وللدفاع عن حدودها اضطرت لخوض حرب طويلة الأمد وبالتالي احتاجت إلى الأموال، إلا أن الذهب في القرن السادس كان قليل التداول واضطرت الحكومة البيزنطية إلى البحث عن نوع ثمين آخر يمكن بواسطته استئجار البرابرة للخدمة في القوات، وبما أن الحرير كان قطعاً نادراً يتداول على مستوى الذهب ووسيلة للدفع للمحاربين ولرشوة أمراء البرابرة، وجدت بيزنطة في إنتاج صناعة الأقمشة الحريرية أحسن هدية للأمراء الجرمانيين أو السلافيين، وخامات الحرير، تأتي فقط من الصين. ولكن الأسعار التي يوافق التجار الصينيون على بيعها بها كانت باهظة جداً، والأتراك فقط هم الذين نجحوا في التوصل إلى تخفيض سعر الحرير، فالخان الأعظم أخذ من بائي - تشجو بدل لقاء الاتحاد، ومن بائي - تسي لقاء عقد السلم المنفرد وضحك قائلاً: «طالما كان الطفلان خاضعين لنا في الجنوب فلا خوف إذن من الفقر».

والحرير الذي كان الأتراك يحصلون عليه من الصين لم يستطيعوا هم بذاتهم أن يستهلكوه، بغض النظر عن أنهم حاكوا منه يورتاتهم (اليورتا مسكن رحل آسيا الوسطى - المترجم) فلقد أخذ التجار الصغديون منهم الحرير المبتذل من كثرة الاستعمال والكميات المغزولة منه أرسلوها إلى بيزنطة التي اشترتها منهم بالسعر المطلوب وعوضته في الأسواق الأوروبية. وطريق الحرير يمر في إيران المتحاربة باستمرار مع بيزنطة، وعطل الفرس التجارة بالحرير عن طيب خاطر عموماً، ولكن على إيرادات الرسوم قامت قواتهم ولذلك سمحوا بمرور الكمية الدنيا من الحرير بالسعر الذي هم حددوه إلى أعدائهم. وكان من مصلحة إيران تقليل العرض وزيادة الأسعار لكي يبتزوا من أعدائهم أكثر ما يمكن من الذهب، وهذا بحد ذاته يقلل من عدد المحاربين المستأجرين من أوروبا للصراع مع إيران، ولكن السياسة الإيرانية تعارضت مع مصالح خانات الأتراك والتجار الصغديين الذين لم يستطيعوا نقل بضائعهم وبيعها والسفراء الأتراك في إيران كانوا بلا جدوى بسبب حزم الملوك الفرس: فالطريق عبر السهوب حول بحر قزوين صعبة وخطيرة لأن الأوغريين المتوحشين والبلغار المحاربين الخاضعين أسميا للأتراك كان عندهم القدرة على قطع الطريق على أيّ قافلة تجار ونهبها وها هو الوقت الذي وجد فيه الخزر كيانهم، وانطلاقاً من مبدأ «أعداء أعدائنا - أصدقاؤنا» دعموا المفارز التيوركية القليلة العدد وأمنوا لها السيادة على سهوب بحر قزوين وشمال القفقاس، وفي القرن السادس الميلادي لم يعد الخزر يختبئون عن السهبيين وتوارت قبيلة البارسيلليين البلغارية عن الخزر في «جزيرة» في مكان مان في دلتا الفولغا الهائلة وقت ذاك. أما الخزر والأتراك معاً فقد دخلوا في صراع مع إيران لكي يكسروا الحاجز بين آسيا الوسطى والدنيا.

وفي عام ٥٧٩م تبادل اليونان والأتراك السفراء وقرروا أن مصالحهم تقضي بعقد حلف حربي موجه ضد إيران، ومن عام ٥٧٩م حكم إيران الشاه هرمز عدو الارستقراطية معتمداً على القوات النظامية، واستكمل عشرون فوجاً من الفرسان النبالة (الرماة الخيالة) بالمحاربين المحترفين الذين يتلقون الأجور من الشاه لقاء الخدمة، وحاول هرمز التقليل من نفوذ الارستقراطية، ولكن الإعدامات حرمته من الشعبية وهي اللحظة التي اختارها اليونان والأتراك لكي ينزلوا الضربة الحاسمة ويفتحوا البوابة من الشرق إلى الغرب.

وفي عام ٥٨٩م بدأ هجوم مركب (يقصد مشتركاً - المترجم) وكما يقول الطبري المؤرخ والعربي «طوق الأعداء فارس مثل القوس - طرفي القوس» (بين فكي كماشة كما هو معروف عسكرياً - المترجم) إلا أن الفرس هزموا الأتراك عند هرات وطردوا الخزر والغُزّ ورشوا الشيوخ العرب للانسحاب وضغطوا على القوات البيزنطية وأجبروها على التراجع إلى وراء الحدود.

واعتبر معاصروا الحدث بالإجماع أن النصر عند هرات كان نجاة لإيران من السحق الكامل وقال مستشار هرمز «لو أن سافيء - شاه (القائد التركي - ل. غ) وصل إلى روما لبقي من إيران شوكة في الحلق» وبدت دورة الحرب هذه منقذاً للصين فحالما ضعف الضغط التيوركي على خط سور الصين العظيم. انتقلت الصين الموحدة في عام ٥٨٩م إلى الهجوم على السهوب الشمالية محاولة إخضاع الخاقانية التيوركية.

إن تاريخ عظمة وسقوط الخاقانية - مثال ساطع على قانون نفي النفي الديالكتيكي فقد تحولت قوة الأتراك إلى ضعفهم، فباحتلالهم منطقة هائلة مأهولة بشعوب متعددة شجاعة بدا الخانات الأتراك في تبعية لولاء أتباعهم، وظهر هذا بصورة خاصة في الغرب حيث كان الأتراك يشكلون أقلية صغيرة العدد ومسكون (الغرب) بالقبائل الجنغارية التيلية التي فصلتهم عن الأتراك الرحل الأصليين المتوضعين على ضفاف أورخان وتولي (في منغوليا). وأثارت الدبلوماسية الصينية البارعة في عام ٦٠٣م انتفاضة في قبائل التيليين ضد خان الأتراك الذي لقي مصرعه وبعد ذلك تفككت الدولة التيوركية إلى خاقانيتين منفصلتين: شرقية وغربية. وكانت الخاقانيتان الشرقية والغربية عدوتين لدودتين. وكانت إمبراطورية تان تحد الخاقانية الشرقية من الشرق وبالتالي أصبحت الحليف الطبيعي للخاقانية الغربية، واستمدت الخاقانية الغربية المعونة من الصغد الذين اغتنوا على حساب تجارة الترانزيت (المرور) وبالوقت نفسه كانوا أعداءً لإيران وأصدقاء لبيزنطة وعقدت الخاقانية الآفارية المتحاربة مع بيزنطة، حلفاً حربياً مع إيران وبما أن الآفار كانوا متجاورين مع الفرنجة فإن هؤلاء توجهوا إلى بيزنطة. واللومبارديون المحميون بجبال الألب التي تفصلهم عن الآفار تحاربوا مع بيزنطة وكان عندهم المبرر الكافي للخوف من الفرنجة ومن الغوث الأسبان الغربيين على

السواء، وبقيت بريطانيا خارج التحالف في الغرب علاوة على اليابان في الشرق على الرغم من أن الأخيرة بدأت بالتحضير الدبلوماسي للتدخل في كوريا.

وقبيل عام ٦٣٠م اندلعت الحرب التي يمكن تسميتها بالعالمية في كل القارة ولكن تقلباتها يمكن أن تفهم فقط عن طريق مقارنة الأحداث الأبعد بالمكان والمتوافقة بالزمان، فقد نجت القسطنطينية لأن الإمبراطور الصيني أوقف على شاطئ نهر في - إي فيئي حشود خان القبائل التيوركية الشرقية في عام ٦٢٦م وخرجت الشرقية من اللعبة لمدة ثلاث سنوات، ولما اطمأن خان القبائل التيوركية الغربية حليف الصين وعدو إيران على حدوده الشرقية اخترق عبر التحصينات الدربنتية وأنقذ جيش الإمبراطور البيزنطي هرقل الرازح تحت الأعداد الهائلة من الأعداء، فاخترق هرقل حتى طيسفون (المدائن) وأصبحت بلاد فارس تحت رحمته من دون حماية ولكن، بما أن التيورك الشرقيين بدؤوا الحرب أسرع بعقد الصلح قبل أن ينجحوا بإخضاع حلفائه - قبائل الأتراك الغربيين، وكلف انسحاب هرقل خان القبائل التيوركية الغربية حياته، حيث قتل المتآمرون الخان وبدأت الحرب الأهلية في عام ٦٣٠م وأصبحت الخاقانية الغربية منهكة القوى، ولكن تشتيت القوى لم يذهب هباءً بالنسبة لقبائل التيورك الشرقيين الذين انتصروا في عام ٦٣٠م على القوات الصينية، وكذلك فقدت الخاقانية الآفارية بعد هذه الحرب أتباعها البلغاريين الذين قاموا بانتفاضة وانهزموا فيما بعد وهربوا إلى إيطاليا وبافاريا وتحولت الخاقانية الآفارية إلى دولة صغيرة بدلاً مما كان مقدراً لها أن تعزز المملكة الفرانكية وأصبحت إيران ضعيفة لدرجة أنها تكبدت الهزيمة الكاملة في معركة القادسية مع العرب الذين لم يعتبروا حتى ذلك الوقت عدواً جدياً، وفي الحقيقة إن انتصار الخليفة عمر يمكن توضيحه ليس بتلك الدرجة من تعصب المنضمين حديثاً إلى الإسلام بل بمقدار ما سقط من خيرة القوات الفارسية في المعارك مع البيزنطيين والقبائل التيوركية - الخزريين، وإن توقف القوافل التجارية المنتظمة في معمعان الحرب حرم التاج الفارسي من إيرادات الرسوم ولم يسمح باستعادة القدرة القتالية المفقودة بسرعة، ونتيجة للمعركة عند نهاوند حيث حطمت قوات الخليفة عمر الجيش الفارسي المجمع على عجل مرة ثانية في عام ٦٤٢م كان نشوء دولة عالمية جديدة - الخلافة العربية.

وبقيت خازاريا حتى اللحظة الأخيرة وفية لخانات القبائل التيوركية، وأثناء النزاعات المتتالية عندما قتل خان الخاقانية الغربية الشرعي في عام ٦٥٠م تبنى الخزريون ورثته وأبقوا العرش للسلالة الملكية للقبائل التيوركية.

وتقاسم الجيران الخاقانية الغربية المتفتتة إلى أقسام: فاستولت إمبراطورية تان على حوض تاريم وخضع الصغد للعرب وكانت سيميريتش[1] وجنغاريا من نصيب التيورغيشيين وألطاي - للكارلوكاميين وسهوب الأورال - للغُزّ والبتشينيغ وانخرطت جميع هذه الشعوب في حروب عنيفة مع بعضها بعضاً، وتوقفت التجارة بين الشرق الأقصى والغرب الأقصى إلى حين. وبغض النظر عن أن خازاريا تحولت قبيل بداية القرن الثامن الميلادي إلى دولة قوية أوقفت هجوم العرب وضمت كل أوروبا الجنوبية - الشرقية فقد امتدت خانية خزر السلالة الملكية التيوركية إلى ضفاف الفولغا الأمر الذي حقق فيه أحفادهم - إقرار السلام على ضفاف بحيرات البلخاش بين القبائل المختلفة من سكان السهوب على أساس المساواة السياسية والصراع المشترك ضد العدو الخارجي الذي هو في تلك الحالة الراهنة التهديد الإسلامي.

وهكذا استمروا حتى بداية القرن ٩م وهذا يعني إلى ذلك الوقت الذي وقعت فيه السلطة بأيدي الجماعة اليهودية، ومن البديهي أن أسلوب تنظيم الخزر على كامل السهوب من البحر الأسود حتى الأورال قد ساعد على تطوير تجارة القوافل، فالقوافل ببضائعها الشرقية مرت عبر خوارزم ومانغيشلاك وعبرت المجرى الضيق بين الأورال الغربي وبحر قزوين وتحركت إما إلى الشمال بالطريق الذي وصفناه أعلاه وإما إلى الغرب عبر مدينة إيتيل الغنية، وكانت تجارة الترانزيت في ذلك الوقت الأكثر ربحاً لأن التجار - الوسطاء كانوا احتكاريين ومن البديهي أنهم سعوا إلى تأمين وضعهم بالتدابير السياسية. وفي بداية القرن التاسع الميلادي قام عوباديا وهو أحد البكوات بانقلاب حكومي وحرم الخاقان من السلطة الفعلية تاركاً له الرئاسة الاسمية للدولة ومبقياً لنفسه لقب «بك» فقط للاستخدام الداخلي وفي المعاملات مع الأجانب سمي ملكاً.

ولحماية النظام القديم هب زعماء قبائل الخزر البكوات والتارخانات واستعرت حرب أهلية عنيفة ذات مسحة دينية لمدة طويلة في السهوب بين الفولغا

١- منطقة السبعة أنهر - وتقع في جنوب شرق كازخستان حالياً.

والدون وانتصر فيها من كان عنده المال وهذا يعني أنصار النظام الجديد، وفي البداية رشا الملوك الخزريون حلفاء لهم بين أوساط القبائل الرحل: المجر والغُزّ والبتشينيغ محرضين بعضهم على بعض ثم لجؤوا في القرن العاشر لاستخدام المرتزقة: الروس والسلاف للحرب ضد المسلمين والارسيين واشترط الديالمة الجيليون والمازندرانيون لأنفسهم الحق بعدم قتال الذين من دينهم لإخضاع الوثنيين والمسيحيين. وهكذا نشأت حكومة لا تعكس مصالح الشعب وإنما اعتبروها كأحد مصادر الدخل، ونحن لا نعلم تفاصيل الانقلاب وتقلبات الحرب الأهلية التي بدأت في بداية القرن ٩م لأن المصادر المتوفرة التي تلقى الضوء على هذه المسألة شحيحة.

ومرت مئة عام وفي تلك المرحلة شكل تعاظم قوة الروس تهديداً قوياً للحكومة الروسية ونافس الطريق التجاري «من الفاريغ إلى اليونان» بنجاح طريق الفولغا «من الفاريغ إلى خازاريا» وسبقت وتائر نمو المدن السلافية نوفغورد وسمولنسك وكييف باريس وأدركت قرطبة وبغداد، وعن شجاعة الروس يكتب مؤلف القرن العاشر الميلادي العربي هكذا «من الخير أن الروس يركبون فقط القوارب ولو أنهم يحسنون ركوب الخيل لكانوا احتلوا العالم كله» وما دامت القبائل السلافية متفرقة استطاع الملوك الخزر أخذ الإتاوة منها عن مدخنة كل بيت، ولكن اتحاد القبائل حول كييف الذي حققه الأميران أوليغ وإيغور شكل على حدود خازاريا دولة قوية لدرجة أنه لزم لمواجهتها توحيد جميع قوى السهبيين وكان ذلك بالنسبة لحكومات الملوك الخزر مثل الموت فالشعب والقبائل المجاورة لم يحترموا الملك اليهودي - المغتصب السلطة بل الخاقان التيوركي المحروم من السلطة الموجود تحت الحراسة ويخرج إلى الشعب في الأعياد الكبرى، وكان هذا الأسير الملكي بالنسبة للشعب رمزاً للعظمة، وللتجار المحتالين ذهباً يملأ خروج السروج. أما سكان السهوب والوديان النهرية فلم ينووا أن يخسروا رؤوسهم، وتجنب البلغار الكامسك خازاريا وعقد البتشينيغ حلفاً مع الأمير إيغور وأصبح الغُزّ أعداءً للحكومة الخزرية، وفقط المازندرانيون الجبليون عوضوا عن أجورهم بإخلاص في خدمتهم وحرسوا خزينة الملك الخزري.

وظهرت نتائج سيادة التجار وأذنابهم في عام ٩٦٥م حيث حطم أمير كييف سفياتوسلاف إيغوروفيتش جيش مرتزقة الملك الخزري واستولى على كل المدن الخزرية الضخمة وانتشر الغُزّ حلفاء الأمير الروسي عبر خازاريا وسحقوا المقاومة الأخيرة للخزر التي من المستبعد أنها كانت عنيفة وسقطت إيتيل المركز التجاري أمام جرأة الشعوب الفتية التي كانت في فجر نهضتها.

وسحقت الدولة الخزرية ولكن الشعب بقي والمصير المقبل للخزر (وليس لحكامهم) ظل مجهولاً للمؤرخين ولكن يمكن أن يتتبعه علماء الآثار، وبهذا الشكل نضم الشوط الثاني من تحليلنا إلى الأول - الجغرافيا التاريخية وتغيرات المناخ وأديم الأرض. وأغرقت موجات البحر المرتفعة الطريق الآمنة بين مانغيشلاك

والأطراف الشرقية للدلتا وأصبحت السهوب الجافة من جديد حاجزاً لتجارة القوافل.

والآن بعودتنا إلى الجغرافيا التاريخية لدلتا الفولغا نعرف أيّ آثار يمكننا أن نجدها هناك، عن من. وأين يجب أن نبحث، وكيف نحفظ ما ننجح في العثور عليه.

obeikandl.com